لاَفْيِيسْتا

(La Fiesta, by Ilham Zenid)

"لافْييسْتا"[1] تحتضر. عدد الزبائن آخذ في الانخفاض بشكل عويص. جرّب أن يغير لون الكراسي، وماركة البن والسكر وحتى بعض الندل ممن كانوا يتأففون من حرارة المطبخ أكثر مما يلزم، لكن شيئا من ذلك لم يفد في إنقاذ حفلته وسط مدينة برشلونة، لذلك آثر الاستسلام لاندلاق الأيام في النهر، قائلا للندل بأنهم سيظلون يفتحون أبواب مقهى لافْييستا حتى انقضاء آخر حبة من البنّ في أكياس المطبخ.

تتبادل الأمواج الضّجرة حوارا ناعسا مدّا وجزرا، فتُنذر رائحة البحر المندلعة بقوة في أنحاء الساحل، بحنين وتسامح لطيفين وكأن الشرّ مجرد سوء تفاهم طال أكثر مما يجب.

يجلس هو على الرمال الباردة، ويخرج من حقيبته نايَه العتيد. ليس الوقت وقت ضخّ الهواء في الثقوب، لكنه شعر بشكل لا يمكن تأجيله بأن رائحة الموج والقدر الصاخب أمامه يدعوانه إلى إرسال كلمة الناي ورائحة ألحانه في هذا البريد الثنائي الحارّ من المشاعر. بعد دقيقة واحدة من العزف بشفتين تصطكّان ندما، كان ساحل برشلونيتا بمدينة برشلونة يخوض حوارا ثلاثيا بين مدّ وجزر وناي رجل عربيّ حزين.

تُترجم سارة نصوصا مختلفة. نصوصا عن المعاهدات الدولية ومقالات السياسة وأوراقا طويلة عن القانون وشروط البيع ومكونات مواد غذائية...، ولكنها لم تستلطفها أكثر مما يمكن أن يستلطف به المرء رئيسه الوقح في العمل. كانت تبسُم في وجه الكلمات وتغيّر حفاظاتها بأمومة حكيمة، مترجِمة إياها من اللغات الفرنسية والإنجليزية والاسبانية إلى العربية أو العكس. بيد أنّ ما كان يسعدها حقا هي الأصوات الجديدة التي تمنحها للقصائد التي يُعْهَدُ إليها بترجمتها من حين لآخر.

كانت تعود من مكاتب الترجمة إلى غرفتهما الصغيرة المكتراة، بقدمين نيّئتين لأنهما ظلّتا في معلّبات الكعب العالي، وهي يافعة وطرية ومستعدة لمداواة ظهر قطّ نجا بكسل من عجلات سيارة مسرعة.

ينفخ في الناي ببهجة وحنق. حنق اليائسين الطيّبين الذين لا يمكنهم إلا الغناء عندما يغضبون. ينفخ في ثقوب آلته مثلما تنفخ سارة في فم الكلمات التي تُترجمها، وكأنها جثث على وشك الاحتضار ويلزم إنقاذها قبل فوات الأوان.

كانا معا يتدبران شأن الحياة والكلمات والفواتير، و"يزرعان الوهم في الأصيص فينمو"[2]، إلى أن تدخّلت كلمة الحرب في بلدهما، وألقت خطبة طويلة نام بعدها كل من كانوا حاضرين، بدون أن يكونوا قد شعروا بشيء من سِنة النوم تجتاح أعينهم.

كانا ممن لم يناموا تماما. هربا قبل أن تخدّر كلمةُ الحرب حواسَّهما، وبعد معارك كادت تطفئ روحيهما، وجدا نفسيهما على ضفة أخرى من الاحتمالات مع حقيبة واحدة ناجية، على متنها سرب كلمات مترجَمة وناي يحتاج للكثير من الرياح كي يبقى على قيد الأمل.

---

[1] :La fiesta الحفلة/

[2] : جملة شعرية للشاعر المغربي عبد الرحيم الخصار.

اشترى لها علبا كثيرة من حبوب منع الحمل، وشرب هو حبوب منع اليأس. لكن ظلال الأسئلة أخذت في الارتفاع من حولهما حتى أخفت جسديهما.

وجد عملا أخيرا في مقهى وسط برشلونة. سيعمل نادلا بدوام جزئي. علّمته سارة ما يلزم من كلمات معجم المقاهي، ما يلزمه بالضبط ليخدم الزبناء في مقهى "لافْييستا" بسخاء.

جالت سارة هنا وهناك، تُربّت على ظهر القصص وتحاول إقناع مكاتب الترجمة بالفراشات التي تعرف جيدا كيف تُطلقها من أقفاص اللغات. صدَّقوها لكنهم كانوا قد حصلوا على كفايتهم من الفراشات والأقفاص معا.

أدخل الفناجين ووضعها في المغسلة البيضاء الكبيرة. إنها الرابعة عصرا. وقت استراحته القصيرة من الطلبات. أخرج نايه من مئزره الأسود الملفوف حول خصره، بالطريقة ذاتها التي يمكن أن يُخرج بها رجل آخر سيجارته من جيبه. دخّن النّايَ بهمّة، ونفث دخانا آسرا من فمه : دخان لحن عربي على مقام السِّيكا والشّجن.

وصلت أدخنة الألحان من نايه إلى ساحة المقهى، حيث كان مواطنون اسبانٌ وسياح من فرنسا وإيطاليا واليونان..، يحتسون مشروباتهم متبادلين نظرات ناعسة. التفتوا إلى بعضهم البعض، مطالبين برغبتهم في اقتسام دخان الناي مع الهواء العليل الراقص بين الفناجين.

خرج تحت طلب صاحب المقهى من غرفة الاستراحة، متوسطا طاولات الزبناء بنايه الفارع، ينشد بصمت الأنين الصادر من كلمات أغنية عربية قديمة.

صفق الجميع بحماس جيّاش. لم يكن الأمر يحتاج إلى ترجمة لغوية مضنية من النوع الذي تعوّدت على إنجازه زوجته سارة. تدفّقت الألحان كأنها يد من مياه، جُرحت بشفرة حلاقة. فهم الجميع من روما ومدريد وباريس لكُنهَ الشّجن في نايه العربي بلا ترجمة ولا وسيط، بلا سكر زائد في الفنجان.

أحبّ صاحب المقهى ما حصل وسأله أن يترك المئزر والفناجين لتدخين الناي بين الزبائن بكل ما يحفظه من ألحان بلاده، كل يوم. حكى لزوجته سارة عن مهمته الجديدة، وحكت له عن العمل الذي لم تجده بعد.

زارته في المساء بعد أن أتعبها توزيع مطبوعات سيرتها الذاتية في مرافق متفرقة في المدينة. طلبت كأس برتقال ثم غرزت شوكتي عينيها في عينيه وعيون الناي المستسلم بين شفتيه، ولم تدر متى بدأت تقرأ في الآن نفسه ترجمة لقصيدة عربية تحفظها عن ظهر قلب، باسبانية حارة. حارّة كالدموع التي كادت تترقق من عيون رواد مقهى لافييستا عندما امتزجت كلماتها بألحان الناي.

تجمّع حول المقهى مارون وعابرون، منهم من اقتعد له مكانا من الكراسي الفارغة ومنهم من بقي واقفا مشدوها إلى حفلة ال "فييستا "، حفلةِ الحفلة.

لم يمض يوم لم تمتلئ فيه "لافييستا" عن آخرها بالروّاد والمستمعين من المارة، الذين حركوا قلوبهم أكثر من أردافهم بموسيقى الناي وأشعار سارة، كما حركوا كل الشرق مع الغرب، وكل العواصم واللغات والثقافات والديانات في كأس واحدة كبيرة حتى كأنهم واحدٌ لا أكثر، شجرة واحدة تجذرت عروقها تحت التراب هنا وهناك.

قال لهما صاحب المقهى بأنه مدين لهما بحياة حفلته التي كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتعلن الإفلاس بسبب العولمة والدّيون، عولمة المقاهي السريعة التي صارت تقدم أكوابا بالقهوة، لا قهوة في أكواب، ودفع لهما راتبا شهريا رآه مناسبا لردّ جميلهما، بعد أن صار مقهاه الأشهر في المدينة، مقهى حفلة الناي والقصائد.

لم يصيرا فاحشيْ الثراء. لكن سارة كفت عن استعمال حبوب منع الحمل، وصار لزوجها كتيبةٌ لا بأس بها من أنواع مختلفة من النايات، وطريقة مضمونة لإغلاق أفواه الفواتير الشهرية النائمة في علبة بريدهما المنزلي.

لم تنته الحرب في بلاد سارة وزوجها، ولم تقع معجزات كبيرة لكن نايا وأشعارا صادقة أبقت "الحفلة" مستمرة، وصرنا كلما مررنا من شارع مقهى لافييستا ببرشلونة، نرى غابة مستعرة من مشاعر تنتمي إلى كل جنسيات الأشجار. تلك التي تشبه رائحة البحر الأبيض المتوسط، عندما يترك عطر مغفرتِه أسفل نعال كل الذين داسوا مياهه وداستهم .